(الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور (1

)الأساس النظري(

سامر رشواني
كاتب سوري
info@almultaka.net

يعرف " الاتجاه " بأنه مجموعة المبادئ و الأفكار المحددة التى يربطها إطار نظرى ، و تهدف إلى غاية محددة[1.]
أما " المنهج " فهو مجموعة الوسائل و الآليات الفكرية الموظفة لاحتواء أفكار اتجاه ما و تحقيق غايته ؟.
و تنبع أهمية هذا التمييز بالنسبة للتفسير خصوصاً – من تطورات العصر الحديث ، و ما فرضته من مناهج متنوعة فى تناول النص القرآنى ، و أساليب و أشكال فنية فى تفسير الآيات القرآنية ، تختلف عن الطريقة التقليدية التى التزمها المفسرون طوال عصورهم السابقة . هذا فضلاً عن الضرورة المنهجية التى تفرض مثل هذا التفريق.
و هكذا يتحدد " الاتجاه التفسيرى " بمجموعة الآراء و الأفكار و النظرات والمباحث التى تشيع فى تفسير ما ، و تكون غالبة على ما سواها ، و يحكمها إطار نظرى أو فكرة كلية تعكس بصدق مصدر الثقافة التى تأثر بها صاحب التفسير و لونت تفسيره بطابعها.

و من هذا المنطق يمكننا الحديث عن اتجاه للتفسير بالمأثور ، أو بالرأى ، أو اتجاه لغوى ، أو هوائى ، أو علمى ، ... بينما يعرف " المنهج التفسيرى " بأنه الوسيلة المحققة
لغاية الاتجاه التفسيرى ، و الوعاء الذى يحتوى أفكار هذا الاتجاه التفسيرى أو ذاك . كالمنهج التقليدى أو الموضوعى...
و لا بد من أن نشير إلى أن هذا التقابل بين الاتجاهات ليس حاداً . فالاتجاه الواحد فى التفسير على الرغم من تميزه عن غيره بسمته العامة و الغالبة ، قد يحمل بين جوانبه روافد و تيارات متنوعة لا تخرجه عن اتجاهه المحدد المعروف . فالتفسير بالمأثور إذ يصطبغ بصبغه الحديث عند مفسرى المحدثين كعبد الرازق و البخارى و ابن أبى اتم ، نراه يجنح إلى جانب اللغة عند مفسر كالبغوى ، و يتلون بلون الحديث و الفقه معاً عند ابن كثير[2. ( )]

كما أن أى اتجاه تفسيرى مهما تنوع أو اختلف ، يمكن أن يتحقق من خلال أحد المناهج التفسيرية التقليدى القديم ، أو الموضوعى ، أو الموضوعى التقليدى ، أو المقال التفسيرى.
نخلص من هذا كله إلى أن منظور تناولنا لتفسير) التحرير و التنوير) هى مبادئه و أفكاره العامة المحددة لأهدافه و غاياته التى تسرى و تتغلغل فى ثناياه.
تفسير " التحرير و التنوير: "
إذا كان تفسير المنار من أهم الكتابات التفسيرية فى المشرق العربى فى القرن العشرين، فإن تفسير ابن عاشور " التحرير و التنوير " يحظى بالمكانة ذاتها فى المغرب العربى . و لعل ما سيأتى يوضح الأسباب الموضوعية التى أكسبت هذا التفسير تلك الأهمية و المكانة السامقة.
لقد سنح لمحمد الطاهر بن عاشور أن يشرع فى تصنيف تفسيره بعد أن انتقل من خطة القضا إلى خطة الفتيا سنة (1341 - 1923) كما يذكر فى خطبة تفسيره[3] ( ) . " فأقدم على هذا المهم إقدام الشجاع على وادى السباع " و أمضى فى تأليفه ما يربو على تسع وثلاثين سنة ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تقلب فيها بين كثير من الوظائف و أنجز كثيراً من الكتب و التصانيف ، فكان تمام التفسير فى عصر 12 رجب سنة 1380 هـ (1961) كما يحدد ابن عاشور – بدقة – فى نهاية التفسير .
و يلحظ أن هذه المدة الطويلة قد عاصرت تغيرات و تحولات كبيرة فى المجتمع التونسى ، لا سيما الاستقلال والتحديات التى واجهتها الحركة الاصلاحية ، الأمر الذى يتوقع أن تنعكس آثاره على تفسيره ، و لكننى لم أستطع أن أضع يدى بدقة على هذه الآثار ، و لعلها تحتاج إلى دراسة أوسع و تحر أدق.
يقع تفسير " التحرير و التنوير " فى ثلاثين جزءاً، طبعت طبعات مختلفة و كثيرة، و لم أقف – فيما وقع بين يدى من مصادر – على تحديد لتاريخ الطبعة الأولى من هذا التفسير . و يبدو أن هذه البسطة فى الحجم قد أكسبته صفة الموسوعة العلمية الشاملة التى
تدل على سعة علم صاحبه و تنوع مناحى ثقافته ، كما تدل على دأب جاد و عزيمة صادقة على إتمام هذا العمل المستفيض . و هذا ما عجز عنه كثير من علماء هذا الزمان ، الذين قضوا نحبهم قبل أن يتموا تفاسيرهم ، أو آثروا كتابة تفاسير موجزة صغيرة.
يفتتح ابن عاشور تفسيره بمقدمات عشر[4] ( ) ، يرى أنها ستكون عوناً للباحث فى التفسير ، و ستغنيه عن معاد كثير ، و تشبه أن تكون مقدمات فى علم أصول التفسير وبعض علوم القرآن : كأسباب النزول ، و القراءات ، و القصص ، و الإعجاز القرآنى . ويلحظ فى هذه المقدمات أن الهدف منها لم يكن تفصيل القول فى هذه المواضيع واستقصائه بقدر ما كان الهدف لإعطاء لمحة موجزة عنها ، و تحديد طريقته ، و منهجه فى تفسير القرآن و تأويله ، و موقفه من بعض القضايا الخلافية بين المفسرين.
من هنا تكتسب هذه المقدمات أهمية كبيرة فى تحديد طريقة ابن عاشور، و منهجه، واتجاهه التفسيرى كما تجلى فى ثنايا تفسيره ، كما سنرى لاحقاً.
يشرع ابن عاشور بعد هذه المقدمات فى تفسير سور القرآن الكريم سورة سورة ، وآية آية ، طبقاً للأسلوب الذى درج عليه المفسرون القدامى فى تفسير القرآن . و قد درج فى تفسيره لأى سورة على تقديم لمحة عن اسم السورة ، و سبب تسميتها بهذا الاسم ، وعن مكان نزولها ، و زمانه ، و موقعها من القرآن ، و عدد آياتها ، مع إيراد الآراء المختلفة فى ذلك كله . بعد هذه المقدمة يخصص ابن عاشور فقرة خاصة مستقلة يعرض فيها " أغراض السورة " ، و سنرى أن لهذه الفقرة أهمية بالغة فى اتجاهه التفسيرى . ثم يبدأ بعد هذا فى تفسير آيات السورة آية تلو أخرى حتى تنتهى.

المبحث الأول : الاتجاه المقاصدى فى تفسير ابن عاشور : (المستوى التنظيرى: (
أ – النزعة النقدية و التجديدية:
قد لا تستطيع نظرة عجلى فى تفسير ابن عاشور أن تعطينا حكماً موضوعياً مناسباً عنه . حيث توحى مثل هذه النظرة أنه من ذلك الطرز التقليدى من التفاسير الحاوية من كل فن و علم و المشتملة على كل مذهب و قول ، من غير ما انفراد بطريقة خاصة فى التفسير و التأويل و لا استقلال برأى أو منهج أو دليل . و لعل الذى يساعد على هذا التوهم أسلوب الطاهر و طريقة عرضه للتفسير.
و لكن النظر المدقق المحقق فى مقدمات تفسيره و أثناءه يدفع ذاك التوهم و ينقض تلك الفكرة المتسرعة ، و يثبت أن لابن عاشور اتجاهه المميز و طريقته الخاصة فى تفسير القرآن و تأويله ، و يؤكد بأنه انخرط فى الحركة الإصلاحية و التجديدية التى نشأ بين أحضانها فكراً و تطبيقاً ، مع الانفراد بطريقة خاصة تميزه عن جميع أقرانه و نظرائه من التجديديين و الإصلاحيين.
فإننا لا نكاد نتجاوز خطبة الكتاب حتى نسمع ابن عاشور يقول : " فجعلت حقاً على أن أبدى فى تفسير القرآن الكريم نكتاً لم أر من سبقنى إليها ، و أن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تارة لها و آونة عليها ، فإن الاقتصار على الحديث المعاد ، تعطيل لفيض القرآن الذى ما له من نفاد "[5].( ) [

فابن عاشور ملتزم منذ اللحظة الأولى أن يقدم لنا الجديد مما لم يفطن له الأقدمون ، و أن يقف من تراثهم موقف الناقد المحقق لا المقلد المتبع . بل إنه يتبع كلامه السابق بتفصيله قائلاً : " و لقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين : رجل معتكف فيما شاده الأقدمون ، و آخر آخذ بمعوله فى هدم ما مضت عليه القرون ، و فى كلتا الحالتين ضر كثير ، و هنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير ، و هى أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه و نزيده ، و حاشا أن ننقصه أو نبيده ، علماً بأن غمض فضلهم كفران

للنعمة ، و جحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة "[1] (1.(

إذن فنحن أمام نظرة نقدية تجديدية ، لا ترضى بجمع القديم و استقصائه ، بل تتطلع نحو فرز هذا التراث و تهذيبه ، و من ثم الإضافة عليه و زيادته من واقع " فيض القرآن الذى ما له من نفاد. "

"فالتفاسير و إن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار و تطويل "[6]( ). لذا لا يختار ابن عاشور من التفاسير إلا عيونها بل إن ابن عاشور يرى أن أهم أسباب تأخر " علم التفسير " هو الولع بالتوقيف و النقل ، اتقاء الغلط الذى عظموا أمره فى القرآن " مما نتج عنه أن أصبح الناس يغتفرون فى التفسير النقل و لو كان ضعيفاً أو كاذباً ، و يتقون الرأى و لو كان صواباً حقيقياً ، لأنهم توهموا أن ما خالف النقل عن السابقين إخراج للقرآن عما أراد الله به"[7] ( ).. و بسبب ترسخ هذه النظرة آل الأمر بالتفسير إلى أن أصبح " تسجيلاً يقيد به فهم القرآن ، و يضيق به معناه "[8].( ) [

و لا أدل على هذه الرؤية النقدية التجديدية المتجذرة عند ابن عاشور من عنوان تفسيره الأصلى و هو " تحرير المعنى السديد ، و تنوير العقل الجديد ، من تفسير الكتاب المجيد " ، الذى اختصره فيما بعد ليصبح " التحرير و التنوير من التفسير "[9].( ) [

إذن إذا كان ابن عاشور من المؤمنين بضرورة التجديد و المتطلعين للضرب فيه بسهم ، فكيف يحدد ابن عاشور مضمون هذا التجديد فى التفسير و طريقته ؟ بعبارة أخرى ، ما جوهر و ما جماع الأفكار و الرؤى النقدية و التجديدية التى يطرحها ابن عاشور ؟!

قد لا تكفينا – لتقديم إجابة دقيقة متكاملة – مطالعة تفسير ابن عاشور بمقدماته العشر . بل يلزمنا لفهم طريقة ابن عاشور و نظريته الإطلاع على مختلف نتاجاته الفكرية و خلفيته الاجتماعية و الثقافية ، الأمر الذى سيوحى لنا بالكثير ، و سيفسر لنا أموراً كثيرة ما كنا نعلم أهميتها لديه و مكانتها لولا ذلك. و قد ذكرنا طرفاً من حياته و كتاباته فيما سبق.

انطلاقاً من ذلك يمكن القول إن الخيط الذى يسلك فكر ابن عاشور فى نسق واحد ، أو " المفهوم المفتاحى " الذى يتخلل فى ثنايا كتاباته هو مفهوم " المقاصد " . فقلما يعالج ابن عاشور موضوعاً - أى موضوع كان - إن فى مقالة أو كتاب دون أن يرد لمفهوم " المقاصد " ذكر ، أو يكون له دور فى بناء فكرته و تطويرها حول ذلك الموضوع . بل يمكن القول . بقليل من المجازفة – إن مفهوم " المقاصد " هو من أكثر المفاهيم والمصطلحات تواردا و تواتراً فى نصوص ابن عاشور. فإلام نرجع تفسير هذه الظاهرة ؟!

يبدو أن الأمر لا يحتاج كثير تحليل و عناء لفهم ذلك . فالناظر فى الخلفية العلمية التى نشأ عليها ابن عاشور يلحظ أنه ينتمى إلى المدرسة المالكية المغربية ، و معلوم ما لهذه المدرسة من تميز و ملامح خاصة تختلف عن مالكية المشرق ، لا سيما فى مجال " مقاصد الشريعة " التى بلغ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فيها الشاطبى شأواً عظيماً . و هذه " النزعة المقاصدية " وإن خبت لفترة من الزمن ، لكنها ظلت كامنة بالقوة ، منتظرة الحركات الإصلاحية التى بدأت بشائرها فى المغرب العربى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى تبعث و تحيا من جديد . و هكذا يطبع " الموافقات " أول طبعة له فى تونس سنة 1302 هـ – 1884م ، و يعزى هذا الدور تاريخياً إلى خير الدين التونسى[10] ( ) ، و يكتب علال الفاسى كتاباً يتعرض فيه لمقاصد الشريعة على نحو موجز ، و إذا أضفنا إلى ذلك أن مدرسة الإصلاح المشرقية – بزعامة الأفغانى و عبده – قد أولت اهتماماً بالغاً بمقاصد الشريعة ، حتى نقل عن الإمام محمد عبده تنبيهه و توصيته الملحة بأهمية كتاب " الموافقات " و ضرورة نشره و الاستفادة منه[11].( ) [

فى ظل هذا الوضع لم يكن من ابن عاشور إلا أن انطبع بهذا الاهتمام ، و تشرب هذا التوجه ، فأخرج لنا أول مؤلف مستقل متكامل فى " مقاصد الشريعة الإسلامية " فى العصر الحديث ، حتى إنه لفرط حماسته كان أول من دعى إلى إنشاء علم مستقل يدعى "علم مقاصد الشريعة" .

و قد وضع ابن عاشور فى كتابه هذا خلاصة نظريته المقاصدية وزبدتها على نحو دقيق و منهجى ، حتى أنشأ مدرسة أو اتجاهاً مقاصدياً كاملاً فى المغرب العربى.

فإذا كان الأمر على هذا النحو فلا غرو أن يندرج تفسيره أيضاً ضمن هذا النسق الفكرى ، و يتشح بهذه الطريقة و النظرية المقاصدية ، لتسرى فى حنايا تفسيره و تبرز بشكل تطبيقى عملى . و هذا ما سنحاول تلمسه و تتبعه فيما يأتى:

ب – طبيعة الاتجاه المقاصدى:

يكرس ابن عاشور منذ خطبة تفسيره مفهوماً للقرآن الكريم ذا ثلاث شعب:

فالقرآن هو -1 : الجامع لمصالح الدنيا و الدين.

-2الحاوى لكليات العلوم و معاقد استنباطها.

-3الآخذ قوس البلاغة من محل نياطها[12] [13].( ) [

هذا التحديد و إن جاء على نحو عرضى فى سياق خطبة ابن عاشور ، إلا أن له بالغ الأثر و الأهمية فى التعريف بتفسيره و طريقته و منهجه ، كما سترى لاحقاً.

يفرد ابن عاشور مقدمة بالغة الأهمية يحدد فيها غرض المفسر من التفسير ، ويتعرض فيها لمقاصد القرآن و العلاقة بين هذين الأمرين . يبدأ ابن عاشور حديثه عن مقاصد القرآن فيتناولها من زاويتين : يحدد فى الأولى المقصد الأعلى من القرآن ، و فى الثانية المقاصد الأصلية التى جاء القرآن لبيانها.

أما المقصد الأعلى من القرآن الكريم فهو كما يحدده ابن عاشور : " صلاح الأحوال الفردية و الجماعية و العمرانية " و تفصيل هذا هو أن:

"الصلاح الفردى يعتمد تهذيب النفس و تزكيتها ، و رأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب و التفكير ، ثم صلاح السريرة الخاصة ، و هى العبادات الظاهرة كالصلاة ، و الباطنة كالتخلق بترك الحسد و الحقد و الكبر. "

و أما الصلاح الجماعى فيحصل أولاً من الصلاح الفردى إذ الأفراد أجزاء المجتمع ، و لا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه ، و من شئ زائد على ذلك و هو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات و مواثبة القوى النفسانية . وهذا علم المعاملات ، و يعبر عنه الحكماء بالسياسة المدنية.

و أما الصلاح العمرانى فهو أوسع من ذلك ، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامى ، و ضبط تصرف الجماعات ، و الأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع ، و رعى مصالح الكلية الإسلامية ، و حفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها ، و يسمى هذا بعلم العمران و علم الاجتماع[14].( ) [

هذاما يتعلق بالمقصد الأعلى من القرآن، وأما المقاصد الأصلية-التى تندرج ضرورة تحت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المقصد الأعلى الجامع – فهى حسب استقراء ابن عاشور ثمانية يمكن أن نلخصها فى[15:( )][
-1إصلاح الاعتقاد .. و هذا أعظم سبب لإصلاح الخلق.
-2تهذيب الأخلاق.
-3التشريع و هو الأحكام خاصة و عامة.
-4سياسة الأمة .. و فيه صلاح الأمة و حفظ نظامها.
-5القصص و أخبار الأمم السالفة للتأسى بصالح أحوالهم ، و للحذير من مساويهم.
-6التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين ، و ما يؤهلهم إلى تلقى الشريعة و نشرها ، و ذلك علم الشرائع و علم الأخبار.
-7المواعظ ، و الإنذار ، و التحذير ، و التبشير.
-8الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول.
قد يتساءل المرء عن علاقة هذا العرض المقاصدى بتحديد غرض المفسر من التفسير ! . تتضح هذه الصلة حين يقول ابن عاشور:
"غرض المفسر بيان ما يصل إليه ، أو ما يقصده من مراد الله تعالى فى كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ، و لا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن ، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم ، أو يخدم المقصد تفصيلاً و تفريعاً .. مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء ، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل ، فلا جرم كان رائد المفسر فى ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله ، و يعرف اصطلاحه فى إطلاق الألفاظ ، و للتنزيل اصطلاح و عادات .. "[16.( )]

يتبين لنا من عبارة ابن عاشور هذه أن عمل المفسر و فهمه إنما يجب أن يدور مع المقصد ، و مع كل ما يمكن أن يسهم فى إيضاحه و جلاءه . فالمقصد القرآنى هو قطب الرحى فى حركة المفسر بمختلف نواحيها و مستوياتها . فبحوث المفسر ، و تحليلاته اللغوية ، أو البلاغية ، أو الكلامية ، أو التشريعية ، أو الاجتماعية .. كل ذلك يجب أن يصب فى خدمة المقصد القرآنى أساساً.
و هذا هو المعيار الذى يحكم عند مطالعة التفاسير ليعرف " مقادير اتصال ما تشتمل عليه بالغاية التى يرمى إليها المفسر ، فيوزن بذلك مقدار ما أوفى به من المقصد ومقدار ما تجاوزه" [17. ( )]
و انطلاقاً من هذه الرؤية المقاصدية يحدد ابن عاشور موقفه و رأيه فى كثير من المسائل و القضايا التى تعد من أصول التفسير و مباديه ، فتكون بمثابة الضابط الذى يحدد له الاختيار الصحيح و الوجهة الحقة . فابتداء بتعريف التفسير الذى لا يقر بكونه علماً إلا لبضع وجوه أحدها : " أن حق التفسير أن يشتمل على بيان أصول التشريع و كلياته فكان بذلك حقيق بأن يسمى علماً .. و لكن المفسرين ابتدأوا بتقصى معانى القرآن فطفحت عليهم و حسرت دون كثرتها قواهم ، فانصرفوا عن الاشتغال بانتزاع كليات التشريع إلا فى مواضع قليلة" [2] (2.(فإذا تطرق لمسألة التفسير العلمى ، أو ما يصح الاستعانة به من العلوم فى التفسير، كان المعيار المحكم لديه هو " خدمة المقاصد القرآنية " . يذكر ابن عاشور أن من طرائق المفسرين طريقة تقوم على جلب " مسائل علمية من علوم لها مناسبة بمقصد الآية : إما على أن بعضها يومئ إليه معنى الآية ، و لو بتلويح ما ، كما يفسر أحد قوله تعالى:
"و من يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً " فيذكر تقسيم علوم الحكمة و منافعها .. و كذلك أن نأخذ من قوله تعالى " : كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم " تفاصيل من علم الاقتصاد السياسى و توزيع الثروة العامة .. و هلم جراً
و إما على وجه التوفيق بين المعنى القرآنى و بين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع ، و إما على وجه الاسترواح من الآية . كما يؤخذ من قوله " و يوم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نسير الجبال " أن فناء العالم يكون بالزلازل..
و شرط كون ذلك مقبولاً أن يسلك فيه مسلك الإيجاز فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم و لا يصير الاستطراد كالفرض المقصود له لئلا يكون كقولهم : الشئ بالشئ يذكر" [18.( )]
و بعد أن يقرر رأيه فى المسألة يعرض آراء العلماء فيها ، و يخلص إلى القول:
"إن السلف بينوا و فصلوا و فرعوا فى علوم عنوا بها ولا يمنعنا ذلك أن نقفى على آثارهم فى علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية"[19.( )]
فهو كما نرى لم ينف التفسير العلمى أو ينقضه من أساسه ، كما لم يعتمد عليه ويعتبره أساس الهداية القرآنية ، و إنما رأى أن القرآن قد أشار إلى علوم أو جاءت هى موافقة له – كعلم طبقات الأرض ، و الطب ، و الفلك ، – فهذه يكتفى منها بما يحقق المقاصد القرآنية و يخدمها فحسب.
و إذا انتقلنا إلى موضوع أسباب النزول نجد ابن عاشور ينتقد المتقدمين الذين ألفوا فى أسباب النزول فاستكثروا منها ، و أساءوا بتلقفهم روايات ضعيفة أثبتوها فى كتبهم وتوسعوا فيها توسعاً ضيق معانى القرآن العليا .. و الحق أن " القرآن جاء هادياً إلى ما به صلاح الأمة فى أصناف الصلاح ، فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية إلى تشريع الأحكام "[20] ( ). فهو " إنما جاء بكليات تشريعية و تهذيبية عامة"[21( )]، لذا نرى أن ابن عاشور يمحص أسباب النزول فلا يختار منها " إلا ما توقف فهم المقصود من الآية على علمه"[22.( )]
و حتى القصص القرآنى البديع فإن الغاية منه لا تقتصر على حصول العبرة والموعظة ، بل تتجاوز ذلك إلى إرشاد الأمة ، و تعريفها بتاريخ من سبقها من الأمم ولكى " تنشئ فى المسلمين همة السعى إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذى كان عليه العرب إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضاً .. حتى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزتهم فأصبحوا كالأتباع للفرس و الروم " ، بالإضافة إلى " فوائد فى تاريخ التشريع و الحضارة و ذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية"[23.( )]
و لا يفتأ ابن عاشوراً مؤكداً حتى عند تناوله لترتيب آى القرآن و مناسباتها على أن " الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها . فإصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان و نبذ العبادة الضالة ، واتباع الإيمان ، و الإسلام ، و إصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هداهم و إرشادهم إلى طرق النجاح و تزكية نفوسهم ، و لذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع فى مدة الدعوة" [24.]
و وظف ابن عاشور مفهوم " المقاصد " أيضاً فى تحليله للنظم القرآنى وخصائصه ، فكان له فى ذلك نظرات حاذقة مبتكرة كقوله مثلاً : " نرى من أعظم الأساليب التى خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء فى نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه و هما : مقصد الموعظة و مقصد التشريع ، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه و هو فى هذا النوع يشبه خطبهم ، و كان فى مطاوى معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاماً كثيرة فى التشريع و الآداب ، و قد قال فى الكلام على بعضه " و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون فى العلم " هذا من حيث ما لمعانيه من العموم و الإيماء إلى العلل و المقاصد[25.]
أعتقد أن فيما سقته من أمثلة دلالة كافية على مدى محورية مفهوم " المقاصد " ومركزيته فى فكر ابن عاشور لا سيما فى مستوى التأصيل التفسيرى ، أما على المستوى التطبيقى فهذا ما سنتحقق منه و نتبينه فى الفصل التالى.
و لكن يلزمنا قبل الانتقال إلى ذلك توضيح قضية هامة ، و هى الفرق بين الاتجاه المقاصدى كما تجلى عند ابن عاشور و الاتجاهات التفسيرية الأخرى ، لا سيما الهدائى منها باعتباره الأكثر قرباً و اشتراكاً فى كثير من القضايا الرئيسية . بعبارة أخرى ، ما سبب إفرادنا لابن عاشور اتجاهاً خاصاً و طريقة مميزة و لم ندرجه فى سياق اتجاهات أخرى تتقاطع معه فى كثير ؟. !

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الاتجاه المقاصدى و الاتجاه الهدائى:

تنبع أهمية هذه القضية - أعنى التمييز بين الاتجاه المقاصدى و الآخر الهدائى – من أمرين اثنين:

الأول : الصلة المباشرة و الاحتكاك القديم بين ابن عاشور و المدرسة الإصلاحية المشرقية ممثلة بمحمد عبده و رشيد رضا ، و متابعته لنتاجها الفكرية ، بما فيها تفسير المنار الذى ينشر تباعاً فى مجلة المنار ، التى كانت تتداول فى تونس بين المجموعات الإصلاحية.

الثانى : إن تفسير ابن عاشور لم يتم حتى بداية الستينات من القرن العشرين ، أى أنه سبق بكثير من التجارب الإصلاحية و التجديدية فى تفسير القرآن ، و التى من المفترض أنه اطلع عليها .. و هذان الأمران يجعلان التساؤل السابق مشروعاً و مفهوماً.

بداية لا بد من الإشارة إلى أنه بعد تفتيش طويل فى أحشاء تفسير ابن عاشور وثناياه لم أعثر على أية إشارة أو ذكر لأى من التفاسير الحديثة أو رواد الإصلاح والتجديد أو أحد من معاصريه ، اللهم إلا مرات قليلة تضمنت إشارات إلى بعض شيوخه مثل بوعتور أو غيره . و هذا أمر يدعو للتساؤل – بحد ذاته – عن سبب هذا الإغفال أو التجاهل.

قد يصعب تحديد السبب الدقيق لهذه الظاهرة ، و لكن نظرة شاملة و كلية إلى أسلوب ابن عاشور قد تساعدنا فى تفسير ذلك و توضيحه . إذ يبدو أن ابن عاشور قد أخذ على نفسه مقارعة الأقدمين و منازلتهم ، فكان منه الجرى على أساليبهم و عاداتهم فى التفسير ، و إن كان قد انحاز عنهم من حيث المحتوى و المضمون . فنلحظ الأسلوب التقليدى القديم فى عرض الآيات و تفسيرها و فى أسلوبه اللغوى الذى يستخدمه ، و فى تحاشيه ذكر أى مناسبة أو حدث معاصر ، و كأنه يعيش بمعزل عن الواقع المعاصر له . وكأن ابن عاشور تعمد أن يتوفى .. سنن الأقدمين من حيث الشكل ، و الأسلوب ، و القالب العام للتفسير ، حتى يكاد يبدو واحداً من أعلامهم و مبرزيهم ، و إن كان قد شق من جهة المضمون و المحتوى طريقاً غير التى سلكوا و ابتكر نهجاً غير الذى عرفوا.

إذا عدنا إلى المقارنة بين الاتجاهين المقاصدى و الهدائى فكيف سيتجلى لنا تمايزها ؟!

يأكد الهدائيون و على رأسهم رشيد رضا على " أن القرآن الكريم إنما هو مرشد و هاد للناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا و حياتهم الآخرة ، فإن هذا هو المقصد الأعلى وما وراءه تابع له أو وسيلة لتحصيله"[26] و استخدامه لمفهوم " المقصد الأعلى " هنا يذكرنا بما سبق ذكره ، و يؤكد التقارب بين الاتجاهين.

بل إن التحديد الذى وضعه صاحب المنار لطبيعة التفسير و وظيفة المفسر يتشابه كثيراً مع ما اعتبره ابن عاشور غرض المفسر – الذى ذكرناه – إذ يقول رشيد رضا:

"فالتفسير الذى يجب على الناس على أنه فرض كفاية هو ذهاب المفسر إلى فهم مراد القائل من القول و حكمة التشريع فى العقائد ، و الأخلاق ، و الأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح ، و يسوقها إلى العمل و الهداية المودعة فى الكلام ، ليتحقق فيه معنى قوله : " هدى و رحمة " [27] .

والمقارن بين الاثنين فى هاتين النقطتين قد يظن أنهما متفقان تمام الاتفاق، وكأنهما مقتبسان من مشكاه واحدة ، بل قد يثبت تأثر ابن عاشور بالمدرسة الإصلاحية وبالمنار تحديداً ، حتى إن لم يشر إليه . و إذا تصور الأمر على هذا النحو ، فما مبرر التفريق بين الاتجاهين أو إفراد ابن عاشور بطريقة خاصة و تمييزه عن المدرسة الهدائية ؟. !

إن نظرة تحليلية مقارنة دقيقة لكلا الاتجاهين و رؤيتهما للتفسير ستثبت أن هناك انعطافاً دقيقاً و مهماً لجهة الهدف و الغاية يشكل نقطة الافتراق و التمايز الجلى بينهما . وتتجلى آثار هذا الانعطاف على المستوى التطبيقى واضحة فيما يلحظه أى مقارن بين " التحرير و التنوير " و " المنار " مثلاً من تمايز و اختلاف شاسع من حيث طريقة التفسير، و أسلوبه ، و طبيعة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الموضوعات المتناولة و غيرها كما سنرى لاحقاً.
و هذا التحليل الدقيق لنصى رشيد رضا و ابن عاشور – المحددين غرض التفسير – سيوضح نقطة الاختلاف تلك:
فصاحب المنار يرى أن المفسر إنما يتخذ فهم مراد القول و حكمة التشريع وسيلة وطريقاً لجذب الأرواح و سوقها إلى العمل و الهداية المودعة فى الكلام..
بينما نجد أن ابن عاشور يعد غرض المفسر هو بيان مراد الله و توضيح مقصده ، باعتبار ذلك غاية برأسها ، للمفسر أن يستعين لتحقيقها بكل ما يخدم المقاصد القرآنية ويبينها.
إذن ، فالهدائيون إنما يتوخون حشد كل ما يستخلصونه من القرآن ، من مقاصد وحكم و قواعد تشريعية فى شتى المجالات ، من أجل الاستفادة منها نهوضاً بالمجتمع الإسلامى من حالة السبات و التخلف التى يعيشها ، و معالجة لشئون الحياة كلها معيشية
أو مدنية أو سياسية . من هذا المبتغى يمكننا أن نفهم الانشغال المستمر و الدائب للهدائيين فى تفاسيرهم بالقضايا الواقعية التى تشغل حاضرهم ، محاولين كشف الهدى القرآنى فيها ، باعتبار القرآن دستور الأمة و مرشدها فى شتى شئونها و قضاياها فقد " كانوا فى تفاسيرهم واقعيين تطبيقيين ، كما كانوا فى واقعيتهم و تطبيقاتهم هدائيين مجددين" [28].
بينما نجد أن ابن عاشور يسلك الاتجاه المعاكس و يقصد غاية أخرى تتجلى فى بيان المقاصد القرآنيه و تجليتها بتوظيف مختلف الأساليب و الوسائل و العلوم (من لغة وبلاغة ، و نحو ، و أصول فقه ، و عمران ، و اجتماع ، و سياسة ..) فى الكشف عن مختلف مستويات المقاصد و أنواعها (كلية ، جزئية ، فردية أو جماعية أو عمرانية ، تشريعية اعتقادية أو بيانية ..) . و هذا يفسر لنا ندرة إشارته إلى القضايا و المشكلات يعيشها المجتمع الإسلامى فى عصره ، بل قلما يذكر أو يتناول المسائل العلمية و القضايا المثيرة للجدل التى ظهرت مع الإصلاح و التجديد ، و هذا ما سيؤخذ عليه فيما بعد قد يقول قائل : أليست المقاصد التى يتوخى ابن عاشور إظهارها و بيانها هى ما ذكره من هداية الأمة وإصلاحها فردياً و جماعياً و عمرانياً ، فحاصل الاتجاهين – إذن – متفق فى إظهار هداية الله للخلق و إصلاحهم فى شتى مناحى حياتهم..
أقول : صحيح أن المقاصد – كما حددها ابن عاشور نفسه – لا تخرج عن هداية الأمة و إرشادها إلى حلول مشكلاتها ، إلا أن ابن عاشور يقصر مهمة المفسر على تحديد مقاصد القرآن كما تتجلى فى كلام الله تعالى ، دون أن يتجاوز ذلك إلى النظر فى المشكلات المعاصرة على ضوء الهدايات أو المقاصد القرآنية ، فتلك قضية أخرى لا تدخل فى التفسير كما يرى أو يراها ابن عاشور . فى حين نجد الهدائيين يتجاوزون تحديد مقاصد القرآن وهداياته إلى محاولة تفعيلها و تطبيقها فى واقع المسلمين عن طريق عرض مشكلاتهم الواقعية و قضاياهم المعاصرة ، و محاولة النظر فى حلولها على ضوء ما يرونه مناسباً من مقاصد القرآن ، و هديه ، و كلياته التشريعية.
و يبدو أن نظرة ابن عاشور إلى وظيفة التفسير و دوره فى الواقع كانت لا تزال تحمل كثيراً من الآثار التقليدية القديمة ، و إن حاول أن يجدد على صعيد المحتوى والمضمون . و هكذا يظهر أن مدرسة الهدائيين كانت متقدمة على الاتجاه المقاصدى من هذه الزاوية ، و إن لم تبلغ شأوه فى تجليه مقاصد القرآن فى مختلف مستوياتها وتفصيلاتها على النحو الذى ظهر فى " التحرير و التنوير " و كما سنبين طرفاً منه فيما يأتى

الهوامش

( )شريف,محمد,اتجاهات التجديد في التفسير في مصر, في القرن العشرين,القاهرة:دار التراث198263-68.
(2)المرجع السابق ص ص 64 – 67 .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(3)محمد الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، 1 / 6 .
(4)نشر هذه المقدمات تباعاً فى المجلة الزيتونية التى كان صدورها عام 1311 هـ 1935 / م ، ثم نشرها فى كتاب مستقل تحت عنوان " مقدمات التفسير " . و تمتد هذه المقدمات على نحو 130 صفحة فى التفسير.
انظر : وسيلة بلعيد بن حمده ، المقدمات العشر لتفسير ابن عاشور ، الهداية : عدد 6 سنة 23 1999 م ، 38.
(5)التحرير و التنوير ، 7/1.
(6)المرجع نفسه ، 1 / 7.
(7)التحرير و التنوير ، 32/1.
(8)الطاهر ابن عاشور ، أليس الصبح بقريب ص 184 ، و محمد الحبيب الشعبينى ، الرؤية النقدية عند الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ص ص 383 – 388.
(9)التحرير و التنوير ، 1 / 8.
(10)إسماعيل الحسنى (م . س) ص 78.
(11)الشاطبى : الموافقات ، من مقدمة عبد الله دراز ص 16.
(13)التحرير و التنوير ، 1 / 5.
(4)التحرير و التنوير ، 1 / 38.
(15)المرجع نفسه 1 / 40 – 41.
(6)المرجع السابق 1 / 41 – 42.
(7)المرجع نفسه 1 / 38.
(8)المرجع نفسه 1 / 13.
(9)التحرير و التنوير ، 1 / 42 – 43.
(20)المرجع نفسه ، 1 / 45.
(21)المرجع نفسه ، 1 / 46.
(22)المرجع نفسه ، 1 / 50.
(23)المرجع نفسه ، 1 / 47.
(24)التحرير و التنوير ، 1 / 67.
(25)المرجع نفسه ، 1 / 81.
(26)المرجع نفسه ، 1 / 115 – 116.
(27)محمد إبراهيم شريف (م . س) ص 311.
(28)المرجع السابق ، ص 311.

(لاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور (2

سامر رشواني
كاتب سوري
info@almultaka.net

المبحث الثانى : الاتجاه المقاصدى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

إذا كنا قد تناولنا فيما سبق – المستوى التنظيرى والتأصيلى للاتجاه المقاصدى عند ابن عاشور ، فمن اللازم أيضاً تناول المستوى التطبيقى لهذا الاتجاه . وذلك بعرض طرف من طريقة ابن عاشور فى تناول مفهوم " المقاصد " وتوظيفه فى تفسير القرآن.

يمكن تحديد طريقة ابن عاشور فى توظيف مفهوم " المقاصد " فى شكلين:

الأول : تقصيد النصوص والأحكام، والثانى : الاستدلال بالمقاصد على الدلالات والأحكام.

أ - تقصيد النصوص والأحكام:

يتجه الذهن فى " التقصيد " إلى ضبط نوعين من المقاصد الشرعية : الأول مقاصد الشارع من خطابه ، والثانى : مقاصده من أحكامه . يروم الفهم فى هذا المستوى إلى إفراغ الباحث جهده العلمى فى استجلاء الإدارة الشرعية من النصوص والأحكام.

وهذا المصطلح " التقصيد " مستعار من الإمام الشاطبى ، حيث يلزم فى نظره كلاً من الناظر فى القرآن، والمفسر له ، والمتكلم عليه ، أن يكون على بال من "أن ما يقوله تقصيد منه للمتكلم ، والقرآن كلام الله ، فهو يقول بلسان بيانه هذا مراد الله من هذا الكلام ... "[1].

وفيما يلى بعض الشواهد والأمثلة على هذا التقصيد من تفسير ابن عاشور:

(1رخصة التيمم : قال تعالى : " وإن كنتم جنباً فاطهروا .. فتيمموا صعيداً طيباً "[2].

يدل النص على أنه عند افتقاد الماء يرخص فى التيمم ، والمقصد الشرعى من حكم الرخصة بالنسبة لعادم الماء أو عند العجز هو التنبيه على عظم قدر الصلاة ، لأنها من قبيل المقاصد الشرعية لذلك تأكد وجوب التطهر لها بوسيلة الماء ، فإن عدمت التجأ إلى وسيلة التيمم التى أقامها الشارع مقام الطهارة . والمقصد من ذلك ألا يستشعر المسلم أنه يناجى ربه بدون تطهر ، وحتى لا تفوته نية التطهر للصلاة ، فلا يفوته ذلك المعنى المنتقل به من طهارة الظاهر إلى طهارة الباطن ، وحتى لا يظن أن أمر الطهارة هين ، وفى إقامة ذلك العمل مقام الطهارة تذكير مستمر بها حتى لا ينسى العود إليها عند زوال ما منعه منها[3].

(2قيام الكعبة : قال تعالى : " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس "[4].

و المقصد من جعل الشارع الكعبة قياماً للناس هو تكوين أمة أصلية من ذرية إسماعيل لها كامل الصفات التى تؤهلها لتلقى الشريعة الخاتمة .. وجماع هذه الصفات : جودة الأذهان ، وقوة الحوافظ ، و بساطة الحضارة ، و التشريع ، و البعد عن الاختلاط ببقية الأمم[5].

(3فى قوله تعالى : " قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فسئل العادين . قال : إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلون "[6 .]

قال ابن عاشور : ولم يعرج المفسرون على تبين المقصد من سؤالهم وإجابتهم عنه وتعقيبه بما يقرره فى الظاهر . والذى لاح لى فى ذلك أن إيقافهم على ضلال اعتقادهم الماضى جىء به فى قالب السؤال عن مدة مكثهم فى الأرض كناية عن ثبوت خروجهم من الأرض أحياءً وهو ما كانوا ينكرونه . وكناية عن خطأ استدلالهم على إبطال البعث باستحالة رجوع الحياة إلى عظام ورفات . وهى حالة لا تقتضى مدة قرن واحد فكيف وقد أعيدت إليهم الحياة بعد أن بقوا قروناً كثيرة . فذلك أدل وأظهر فى سعة القدرة الإلهية وأدخل فى إبطال شبهتهم إذ قد تبين بطلانها فيما هو أكثر مما قدروه من علة استحالة عود الحياة إليهم"[7].

(4قوله تعالى : " وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . . . "[8].

فالمقصد من توجيه الخطاب فى الآية إلى الأزواج هو عدم تذرعهم بضعف النساء رحيائهن فى سبيل غمص حقوقهن التى منها مهورهن[9].

(5قال تعالى : " أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بطشتم جبارين "[10].

بعد ذكره الأعمال النافعة من بناء ومصانع يقول ابن عاشور : " فإذا أهمل إرضاء الله بها واتخذت للرياء والغرور بالعظمة وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله ، انقلبت عظمة دنيوية محضه لا ينظر فيها إلى جانب النفع ولا تحث الناس على الاقتداء فى تأسيس أمثالها وقصارها التمدح بما وجدوه منها فصار وجودها شبيهاً بالعبث لأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند الله بها لأن الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته[11] .. ثم يتابع ابن عاشور قائلاً " ولما صار أثر البناء شاغلاً عن المقصد النافع للحياة فى الآخرة نزل فعلهم المفضى إلى العبث منزلة الفعل الذى أريد منه العبث عند الشروع فيه ، فأنكر عليهم البناء بإدخال همزة الإنكار على فعل " تبنون " . . . " ثم يستطرد فى بيان وجه دلالة الآية على هذا المقصد لغوياً وبلاغياً.

(6الوفاء بالعقود . قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . . "[12].

لما كان المقصد الشرعى من شرع العقود سد حاجات لأمة اعتباراً للمناسب الحاجى ، تعين فى هذا النص وجوب إيفاء العاقد بعقده[13].

(7قال تعالى : " وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون"[14].

يقوله ابن عاشور : " وتقديم الظرف فى قوله : " فيه مواخر على عكس آية سورة نحل ، لأن الآية مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله فى المخلوقات ، وأدمج فيه الامتنان بقوله " يأكلون . . . وتستخرجون حلية " وقوله " لتبتغوا من فضله " فكان المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع فهو الأهم هنا . ولما كان طفو الفلك على الماء حتى يفرق فيه أظهر فى الاستدلال على عظيم الصنع من الذى ذكر من النعمة والامتنان قدم ما يدل عليه وهو الظرفية فى البحر . والمخر فى البحر آية صنع الله أيضاً بخلق وسائل ذلك والإلهام له ، إلا أن خطور السفر من ذلك الوصف أو ما يتبادل إلى الفهم فأخر هنا لأنه من مستتبعات الغرض لا من مقصده ، فهو يستتبع نعمة تيسير الأسفار لقطع المسافات التى لو قطعت لو بسير القوافل لطالت مدة الأسفار[15 .].

(8قال تعالى : " قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار "[16].

والمقصود من وصف " الغفار " هنا استدعاء المشركين إلى التوحيد بعد تهديدهم بمفاد وصف " القهار " لكى لا ييأسوا من قبول التوبة بسبب كثرة ما سبق إليهم من الوعيد جرياً على عادة القرآن فى تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس[17 . .].

واضح مما سبق أهمية مفهوم " المقاصد " عند ابن عاشور ، إذ لا يقتصر تقصيده على الأحكام الشرعية التكليفية بل يتجاوزها إلى نصوص الترغيب والترهيب والقصص والتحليل البلاغى واللغوى للآيات القرآنية.

ب - الثانى : الاستدلال على الدلالات والأحكام الشرعية.

يعكس الاستدلال فى صورة متكاملة الغاية المنهجية للفكر ، ففيه التنظيم المؤسس على قراءات نظرية ووسائل منهجية ، وفيه التركيب لأن كل استدلال يتحتم توفره على ثلاث عناصر هى مقدمة يستدل بها ، ونتيجة لازمة عن تلك المقدمات ، وعلامة منطقية بين المقدمات والنتيجة . وتستند مقدمات الاستدلال هنا على مقاصده من خطابه أو مقاصده من أحكامه . فمن ذلك:

(1قال تعالى : " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها . . . "[18]

يرى ابن عاشور أن " الآية تومئ إلى أن المقصد الشرعى من وسيلتى إراقة الدماء وتقطيع اللحوم هو انتفاع الناس المهدين بالأكل منها فى يوم العيد ، وغيرهم بالأكمل مما يهديه إليهم أقاربهم وأصحابهم. "

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لذا فهو يرى " المصير إلى كلا الحالين من البيع والتصبير لما فضل عن حاجة الناس فى أيام الحج لينتفع بها المحتاجون فى عامهم ، وهذا أوفق بمقصد الشارع تجنباً لإضاعة ما فضل منها رعياً لمقصد الشريعة من نفع المحتاج وحفظ الأموال ، مع عدم تعطيل النحر والذبح للقدر المحتاج إليها منها ، المشار إليه بقوله تعالى " : فاذكروا اسم الله عليها صواف . . . " جمعاً بين المقاصد الشرعية[19.]

(2قال تعالى : " ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير . ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير .. "[20.]

يقول ابن عاشور فى استدلاله على المخاطب فى " تعلم " : " والخطاب فى تعلم ليس مراداً منه ظاهره الواحد وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، بل هو إما خطاب لغير معين خارج على طريقة المجاز بتشبيه من ليس حاضراً للخطاب وهو الغائب منزلة المخاطب فى كونه بحيث يصير مخاطبا لشهرة هذا الأمر ، والمقصد من ذلك ليعم كل مخاطب صالح له . . . وإما مراد ه ظاهره وهو الواحد فيكون المخاطب هو النبى صلى الله عليه وسلم لكن المقصود منه المسلمون فينتقل من خطاب إلى مخاطبة أمته انتقالاً كنائياً .. فتارة يراد من الخاطب توجهρالنبى مضمون الخطاب إليه وتارة يقصد توجه المضمون لأمته . . وهاهنا لا يصلح توجه المضمون للرسول لأنه لا يقرر على الاعتراف بأن الله على كل شئ قدير ، فضلاً عن أن ينكر عنه ، وإنما التقرير للأمة والمقصد من تلك الكناية التعريض باليهود[21.]

(3قال تعالى : " و اللاتى تخافون نشوزهن .."[22.]

لخص ابن عاشور حاصل رأيه فى المسألة فقال " : يجوز لولاة الأمور إذا علموا أن لأزواج لا يحسنون وضع العقوبات الشرعية مواضعها ، ولا الوقوف عند حدودها ، أن يضربوا على أيديهم استعمال هذه العقوبة ، ويعلنوا أن من ضرب امرأته عوقب كى لا يتفاقم أمر الإضرار بين الأزواج لاسيما عند ضعف الوازع :- [23]و يتحدد استدلاله المقاصدى للحكم فى أمرين:

– 1مقصد الشارع القاضى بحفظ النفوس ومنها نفوس النساء من كل اعتداء نفسى أو جسدى.

– 2الأصل فى قواعد الشرعية عدم قضاء أحد بنفسه إلا لضرورة.

– (4قال تعالى : " و إذ قال موسى لقومه يا قوم أنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم .. "[24.]

قال ابن عاشور : " فى هذا تشريع حكم لا يكون مثله إلا عن وحى لا عن اجتهاد ، وان جاز الاجتهاد للأنبياء فان هذا حكم مخالف لقاعدة حفظ النفوس التى اتفق عليها شرائع الله، فهو يدل على انه كلفهم بقتل أنفسهم قتلا حقيقة"[25.]

(5قال تعالى : " يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق .... ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ..."[26 .]

يتكلم ابن عاشور عن معنى "لو" هنا ووظيفتها فيكون :" ليس المقصود من اجتلاب " لو" فى هذا الشرط إفادة ما تقتضيه " لو " من الامتناع لأنه ليس المقصود الإعلام بقدرة الله على ذلك ، بل المقصود إفادة لازم الامتناع وهو أن يوفر أسباب إذهاب البرق و الرعد أبصارهم الواقعين فى التمثيل متوفرة ، وهى كفران النعمة الحاصلة منهما ، إذ انهما رزقوها للتبصر فى الآيات الكونية وسماع الآيات الشرعية فلما اعرضوا عن الأمرين كانوا أحرياء بسلب النعمة،إلا أن الله لم يشأ ذلك إمهالاً لهم،وإقامة للحجة عليهم فكانت"لو "مستعملة مجازاً مرسلاً فى مجرد التعليق إظهاراً لتوفر الأسباب لولا وجود المانع"[27 .]

هذه بعض الشواهد الدالة على توظيف بن عاشور مفهوم " المقاصد " فى الاستدلال سواء للأحكام الشرعية ، كما رأينا فى " تبصير الهدايا " أو " ضرب الزوجة " ؛ أو دلالات النصوص القرآنية كما فى تحديد المخاطب فى " تعلم " ، أو طبيعة الخطاب (حقيقة أم مجاز

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

فى قصة موسى) أو فى التحليل اللغوى و البلاغى كالبحث فى معنى " لو. "

المبحث الثالث : ملامح من منهج أبى عاشور فى تفسيره:

لابد لنا و قبل أن نختم كلامنا عن ابن عاشور واتجاهه المقاصدى فى التفسير – أن نشير إلى بعض ملامح منهجه ، الذى توصل به إلى تحقيق غايته ، و أهدافه ، و مقاصده . وإضافة إلى ما سبق ذكره من بعض النقاط المنهجية فى سياق التأصيل " لعلم التفسير " ، يمكننا أن نورد ما ذكره ابن عاشور فى مقدمته عن منهجه فى تفسيره بعبارته ، إذ يقول:

"وان معانى القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف موزعة على آياته ؛ فالأحكام مبينة فى آيات الأحكام ، والآداب فى آياتها ، والقصص فى مواقعها ، وربما اشتملت الآية الواحدة على فنين من ذلك أو أكثر . وقد نحا كثير من المفسرين نحو بعض تلك الأفنان ، ولكن فناً من فنون القرآن لا تخلو دقائقه ونكته آية من آيات القرآن ، وهو فن دقائق البلاغة ، هو الذى لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب كما خصوا الافانين الأخرى ، من أجل ذلك التزمت أن لا أغفل التنبيه على ما يلوح لى من هذا الفن العظيم فى آية من آى القرآن كلما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر.

وقد اهتمت فى تفسيرى هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال.

و اهتمت أيضا ببيان تناسب اتصال الآى بعضها ببعض ، وهو منزع جليل قد عنى به فخر الدين الرازى وألف فيه برهان الدين البقاعى كتابه المسمى "نظم الدر فى تنايب الآى و السور " الا أنهما لم يأتيا فى كثير من الآتى بما فيه مقنع ، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع ، أما البحث فى تناسب مواقع السور بعضها أثر بعض ، فلا أراه حقا على المفسر.

ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر فى تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعانى جمله ، كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله.

و اهتممت ببيان معانى المفردات فى اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة . و عسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده ، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعداده .. "[28].

ولابد أن نضيف إلى أنه يعتمد فى الفقه والإحكام على المذهب المالكى بصورة رئيسية مع تعرضه للمذاهب الفقهية الأخرى ، ولأقوال الصحابة و التابعين . وهو فى كل ذلك يحقق الأقوال ويرجح ويقارن دون أن يتحجر باتباع مذهب معين أو فكرة محددة ، بل يسير مع أى رأى يتفق ومنهجه التشريعى ورؤيته المقاصدية ، و إن لاحظنا أحيانا غلبة واضحة للمذهب المالكى باعتباره منبع هذه الرؤية و مؤصلها[29 .]

قد يرى البعض فيما نقلناه عن ابن عاشور فى تحديده منهجه ، وفى تفسيره عموما أن ابن عاشور إنما يعبر بما ذكره وطبقه فى تفسيره عن انتمائه إلى المدرسة البيانية الأدبية فى تفسير القرآن ولا أدل على ذلك من اهتمامه البالغ بعلم البيان والمعانى والبديع ، والوقوف على النكت البلاغية ، و إبراز ظواهر الإعجاز القرآنى[30!!]

يجدر بنا فى هذا السياق ، و لإزالة هذا اللبس ،أن نشير إلى ظاهرة غريبة تتعلق بتفسير ابن عاشور.

وهى أن الناظر فى اهتماماته اللغوية يحسب أنه من البلاغيين الأدباء ، و الناظر فى تحليلاته الاجتماعية والسياسية والتاريخية يرى أنه من رؤوس الهدائيين وأعلامهم ، بينما يرجح آخر أنه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

من الفقهاء المجددين مما يراه من تحقيقات فقهية و أصولية واجتهادات حاذقة..
وابن عاشور –فى حقيقته – بين هؤلاء وأولئك جامع "موفق" ، وترجيح انتسابه إلى إحدى المدارس التفسيرية تلك ليس بأولى من ترجيح انتسابه إلى أخرى . فهو يرى – كما نقلناه سابقا : " أن معانى القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف". لذا فقد جاء تفسيره على وفق هذه المقاصد متعدد الجوانب مختلف الاهتمامات، لا على نحو تجميعى تقليدى متناثر ، و إنما وفق نظرية ونسق محدد اختاره ابن عاشور ناظما لتفسيره وموحدا لاهتماماته ، الا وهو النسق المقصدى أو " النظرية المقاصدية."
من هنا يمكن أن نفهم مثلا ان انشغال ابن عاشور بعلوم البلاغة و البيان و غيرها، إنما كان بالمقدار الذى يتوافق مع نظريته المقاصدية ويخدمها ، وليست غاية بحد ذاتها ومقصدا مستقلا اراد تحقيقه كما هو الحال عند أصحاب المدرسة الأدبية أو البلاغية ... والكلام ذاته ينطبق على مختلف اهتمامات ابن عاشور العلمية فى تفسيره.

الخلاصة

بعد هذا الطواف السريع فى حياة ابن عاشور وفكرة وتفسيره ، وهذا التحليل المنهجى لاتجاه ابن عاشور وطريقته التفسيرية ، يمكننى أن أسجل - كخلاصة - بعض النتائج الرئيسية هنا:
-1يعد ابن عاشور أحد أعلام الإصلاحيين ، الذين اتخذوا التجديد والاجتهاد والإصلاح منهجاً وسبيلاً فى فكرهم وحياتهم . وما تفسيره إلا أحد نتاجات هذه الحركة التجديدية.
-2لقد انفرد ابن عاشور باتجاه مميز وطريقة خاصة فى التفسير ، دعوتها " الطريقة المقاصدية " أو الاتجاه المقاصدى " فى التفسير . وتتجلى المقولة الأساسية لهذا الاتجاة فى : توظيف جميع العلوم والوسائل والأدوات المعرفية المتوافرة فى الكشف عن المقاصد القرآنية وإظهارها على أحسن وجه ، تلك المقاصد المتمثلة فى إصلاح الفرد والمجتمع والأمة وهدايتهم .
-3إن النزعة النقدية والاتجاه المقاصدى لدى ابن عاشور لم ينشأ من فراغ ، وإنما كانا حصيلة عوامل كثيرة كان منها : انخراطه المبكر فى الحركة الإصلاحية المشرقية والمغربية وتشربه النزعة المقاصدية الكامنة فى مذهبه المالكى ، والتى طورها الشاطبى . الأمر الذى دفعه إلى تأسيس أول نظرية مقاصدية متكاملة بعد الشاطبى ، والدعوة إلى إنشاء علم مستقل يدعى . . علم مقاصد الشريعة.
-4يتميز اتجاه ابن عاشور المقاصدى عن غيره من الاتجاهات التفسيرية من جوانب متعددة . يأتى على رأسها رؤيته لوظيفة التفسير ومهمة المفسر . وهو إن اتفق مع الاتجاه الهدائى مثلاً من حيث النظرة إلى القرآن الكريم ودوره فى حياة المسلمين وحل مشكلاتهم الواقعية ، ولكنه يختلف معهم من حيث وظيفة التفسير المقتصرة على تجلية المقاصد القرآنية وإيضاحها ، باعتبار أن ذلك هو أول طريق للإصلاح.
-5احتل مفهوم " المقاصد مكانة مركزية فى فكر ابن عاشور عموماً وفى تفسيره خصوصاً . واتخذت وظيفته فى التفسير أشكالاً عدة منها : التأصيل التفسيرى ، تقصيد النصوص والأحكام ، الاستدلال بالمقاصد على الأحكام والدلالات.
-6لقد اختار ابن عاشور منهجاً ذا أبعاد وجوانب متنوعة ، ليتناسب ذلك مع نظريته المقاصدية التى تؤكد على تعدد المقاصد القرآنية وتنوعها ، وضرورة تناول القرآن من مختلف جوانبه ، و بمختلف الوسائل حتى تتبين جميع مقاصده على حد سواء.
ختاماً ؛ لا يسعنا إلا الاعتراف بأصالة هذا العالم – محمد الطاهر ابن عاشور – ونبوغه فى مختلف نواحى العلوم الإسلامية ، الأمر الذى تجلى فى تفسيره الذى جاء موسوعة علمية كبيرة حوت مختلف العلوم والمعارف ودلت على سعة ثقافته وأصالة فكرة .هذا إلى جانب الدور الإصلاحى التجديدى الذى أسهم به فى المغرب العربى ، حتى أصبح مدرسة مستقلة لها رجالها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وتلاميذها ، مدرسة أصبحت تدعى " مدرسة مقاصد الشرعية. "
كما يجب القول بأن هذه الدراسة الموجزة ليست إلا خطوة صغيرة فى سبيل تحليل طريقة ابن عاشور ومنهجه التفسيرى ، أو فى سبيل دراسة وتحليل اى من رجال الإصلاح والتجديد الذين ظهروا فى عصرنا الحديث . وهى لذلك بحاجة إلى كثير من التعميق والتوسيع الذى حال دونه طبيعة الدراسة وضيق الزمن ، والله الموفق.

الهوامش

(1)الشاطبى ، الموافقات ، 396/1.
(2)المائدة الآية (6. (
(3)التحرير والتنوير ، 126/6
(4)المائدة (6. (
(5)التحرير والتنوير.
(6)المؤمنون ، 112 – 114.
(7)التحرير والتنوير ، 132/9.
(8)النساء ، 3.
(9)التحرير و التنوير ، 5 / 2 .
(0)الشعراء ، 128 – 130.
(1)التحرير و التنوير ، 9 / 166.
(2)المائدة ، 1.
(3)التحرير و التنوير ، 6 / 74.
(4)فاطر ، 12.
(5)التحرير و التنوير ، 11 / 280.
(6)ص ، 65 – 66.
(7)التحرير و التنوير ، 11 / 295.
(8)الحج 37.
(9)التحرير و التنوير ، 17 / 267.
(20)البقرة ، 107.
(2)التحرير و التنوير ، 1 / 663.
(22)النساء ، 34.
(23)التحرير و التنوير ، 5 / 37.
(24)البقرة 5.
(25)التحرير و التنوير ، 502/1.
(26)البقرة ،20 .
(27)التحرير و التنوير 1 / 319 .
(28)التحرير و التنوير ،8/1.
(29)صالح واسى ، منهج الامام محمد الطاهر بن عاشور الاجتهادى ، مجلة الهداية : عدد26،السنة 1999،23.ص43-52.
(30)انظر:واسى(م.س) ص52 ومحمد المهدى العروسى (م.س) ص 307.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT
Est. 2012 CE

This file was downloaded from QuranicThought.com